عَوْدَة

بقلم جهان غزاوي عوني

[الاسطورة]

تقول اسطورة برتغالية حديثة ، ان احدى فتياتها الحسان الساحرات الانوثة ، واسمها « بيلا »، كانت على قسط وافر من الذكاء والرزانة وحب العلم ، وانها تربت على المزايا الكريمة كما تربت على الاعجاب البـــالغ بابيها النبيل الخلق ، حتى غدت لا تجد بين طلابها الكثر من تعجب به مثاليتها المفرطة الشفوفة ، كما تعجب بالأب الانموذجي الاخلاق .

ودرجت بها السن فلم يعد من سبيل امامها الا ان تختار لها من اولئك الراغبين فيها زوجاً ملائماً تعيش في كنفه مطمئنة النفس موفورة الكرامة.. فاختارت منهم من هو اشبه بابيها صفات ، واكثرهم وفاء لها ، واقربهم الى مفاهيمها عن الحياة الزوجية ، رغم صدها اياه امداً ليس بالقصير وتغاضيها عن مبادلته شعوره .

وكانت ذات صوت ساحر ، والمام ألمعي بفن الغناء ، يستهويها فيـــه ابتكاراته الفنية اكثر مما يأخذها منه جمال النغم ، وحسن الاداء .

وفي ليلة مشرقة دعا « بيلا » وجيه من وجهاء البلدة مع من دعا ، لاحياء تلك الليلة بين الخمائل ، والنسمات الرطاب والانغام المراح ، احتفاء بإياب ابنه الوحيد من سفرة طال امدهـــا الى وطنه واهله .

وغنى المجتمعون ورقصوا طويلاً ، وضجت جنائن القصر بالطرب ، وضاقت على رحبها بالمرح الصاخب والضحكات المتعالية .

وجاء الشاب المحتفى به ، واسمه «بيرتو» ليختتم الحفلة باغنية كان قد احبها من جملة ما احب في غربته الطويلة ، وطبعها بميسمه الانيق كشأنه في كل اموره . ووقف بين الجموع متلطفاً بالاشارة اليهم كي يسكنوا ، وقد احاط به لفيف من العذارى المعجبات ، يضاحكنه ويسامرنه ، حتى غدون بقدودهن الممشوقة ، وشبابهن الفياض ، وشعورهن المسترسلة على الاكتاف ، كأنهن ومضات شفافة من النور في جهمة ليلة من ليالي الشتاء القارسة .

وغنى الفتى بغبطة ملأت احلام الموجودين بالجمال ، واشبع كلماته اماني قلبه وسحر الحانه ، وهو يتمشى بخطوات موقعة خفيفة بين تلك الجموع متئداً متريثاً ، منشداً لكل حلوة مقطعاً من اغنيته المجنحة ذات النغم الحزين ، والمعاني المبتكرة ، فاسترعى انتباه الجميع ، وران على المكان سكون رائع .

وقادته خطاه الراقصة ، او اغنيته الحالمة ، او عيناه النقادتان الى ... تلك الواقفة بعيداً في زحمة من لداتها تنظر اليه بذهـــول وحيرة ، وقد ففرت فاها . وعلقت نظراتها بنظراته متسائلة مستفهمة باحثة ، لا يكاد يرف لها جفن او تصدر عنها نأمة .

لقد كانت « بيلا » الفاتنة .

وبخشوع بليغ ألقى « بيرتو » اليها ببقية اغنيته ، وكأنما قـــد نفض بين يديها جملة نفسه ، ومنتهى امانيه ، او كأن خيالاً بعيداً اخذ يرود اغلفة اجفانه فاطبق عينيه - في المقطع الاخير من اغنيته - على حلم شيق ليفتحهما متوسلاً مستفهماً .. على انه لم يتلق من عينيها الشاخصتين اليه جواباً مطمئناً .

وتقدم منها رقيقاً ، وبوشوشة فيها انفاسه المتلاحقة ، رجاها ان تغني لهم اغنية ، لانها كما يبدو ، تفهم الكثير في فن الغناء ...

وابتسمت له « بيلا » كما لم تبتسم ابداً ، ابتسامة فيها العطش الملح لملء تلك المثالية العصماء - مثاليتها - التي اخطأتها المقادير فلم تفتهـــا حتى ولا بالرذاذ ... وقالت له وعيناها تتمليان قسماته الوضيئة ، واذناها ما زالتـــا ترجمان صدى اغنيته المعبرة التي لا تعلم انى سمعتها وانى طال سماعها لها ... قالت له متلجلجة ثم واثقة : اجل سأغني ... وطويلا جداً ... ولكن بيني وبين نفسي وحسب .

ورأته ينسل متوارياً ، ويغيب طويلاً ...

وانفض عقد المدعوين . وسارت فتاتنا مع صويحباتها ساهمة مفكرة...

وفي الطريق ، طريق العودة الى بيتها المنعزل الى جانب الغابة ، لمحته قادماً نحوها من بعيد ، وقد امتطى ظهر جواد اشقر والتف بوشاح احمر فضفاض ، وقد بدت قبعته الواسعة المستديرة ، تأتلق تحت القمر ، وتداعبها النسمات الجانحة .

واقترب منها حتى رأت وجهه بتقاطيعه النبيلة وقد اخذ سمتاً خاصاً لا يبعد ان يكون هو بالذات سمت ابيها اذا ما صمم على انجاز عمل ما .

وقال لها مبتسماً وهو ينتشلها برشاقة اصيلة ليضعها امامه على الجواد الاشقر :

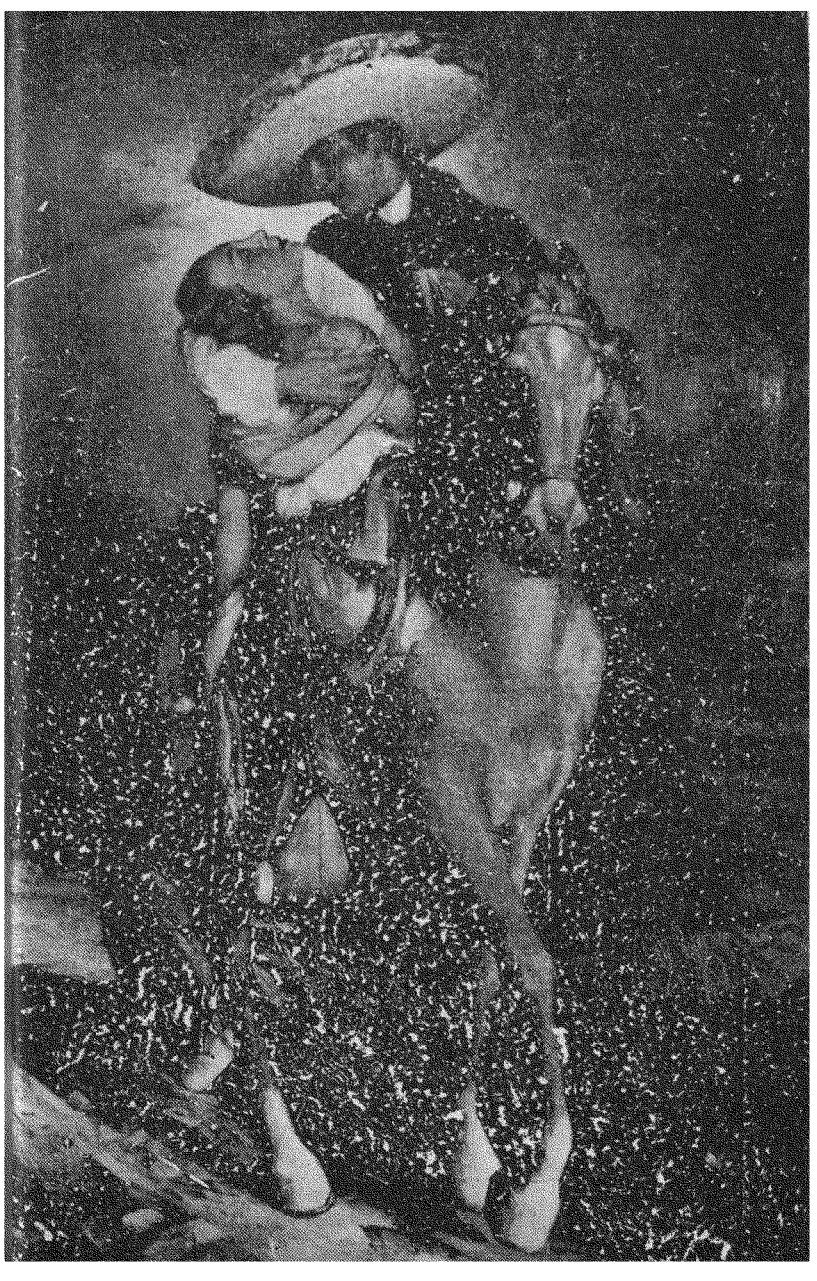

– بل ستغني اغنيتك الرائعة معي .. والى الابد .

وفي اليوم الذي تلا تلك الليلة الليلاء تحدث قوم فيما بينهم ... وقال قائل منهم : انه رأى في الليلة الماضية عجباً ... لقد رأى فارساً من فرسان الجان العالقة يختطف الحسناء « بيلا » ويجري بها ، كالسهم ، في طريق لا عهد له بها من قبل ... وقاطعه قائل آخر مكذباً مسفهاً ... بل رأيتها انا بعيني رأسي هاتين تأوي الى بيتها كما تأوي اليه في كل امسية ساهرة .

وذهب بعض المستطلعين في الدقيقة نفسها الى بيت « بيلا » فوجدوها على الشرفة المطلة ، مع زوجها وولدها الصغير يسقون الزهور ، وقد بدت السعادة على وجوههم جميعاً طافية مزهوة .

واسقط في يد القائل الاول ، وشهد له الموجودون بانه لم يكن ملوماً فهو من غير ريب قد حلم حلماً مزعجاً .

اما الذي لم يقل في هذا الامر شيئاً ، وعنده الخبر اليقين ، فهو هذه الغابة القريبة التي شهدت وحدها الحقيقة كما هي ... والتي سمعت وحدها من بعد الاغنية الفريدة التي غنتها بيلا للاغصان والانسام ، والنجوم والسكون ، والوحدة والوفاء ... والتي ما زالت الى اليوم تتجاوب اصداؤها الحنون كلما عصفت الريح ، واعولت عناصر الطبيعة ، كما تجاوبت يوما مثاليتها الرفيعة مع حقائق المبادىء الزوجية المقدسة .

[الاغنية]

= اجل سأغني ، ولكن .. بيني وبين نفسي =
اذاكر انت
ايها الغريب الراحل .. ،
حينما كنا على ظهر جوادك الاشقر
وقد امسكت يداي بيديك الرحيمتين
في غير كلفة ولا وجل ،
ودون وعي ، ولا تفكير
تعبث بالأصابع وتتشبث
كأنما كانتا تضمان بينهما الزمان والمكان بدقائقهما
فتضمان شبحك ...
اجل ... شبحك الغائم
الذي علمت انه لن يكون لي – بعد –
الا مجرد شبح وحسب
شبح رأيته منذ طفولتي الاولى
في هيكل ابي النبيل
وجهدت كي احتفظ به بكل قواي الخيرة
فاسقط في يدي
وتعثرت بخطاي
على غير هدى ، وبدون طائل

***

والجواد الاشقر
يجد بنا السير حثيثاً
ضارباً الحصى بقوائمه القوية
عابثاً بالحشائش المنداة
يجد بنا السير الى ما لا نهاية
كما كان يخيل الينا آنذاك
في تلك الهدأة الوسنانة من الليل
تلك الهدأة التي نامت على انغامك الحلوة المهدهدة
وقد تجاوبت في اعماق نفسي تجاوباً سحرياً طافراً
خلتها كأنما تعلو بي مترفقة
على اجنحتها المخضلة الاطراف
لتصل بي الى الملأ الاعلى
بعد ان تترك جسمي الضاوي وديعة على الارض
ثم تمر بالقمر
الذي ما زال ينصت بعمق لرجع انغامك تلك
لتسأله : هل اصابت الحانك في هذا السحر الموه
ام انها كانت من الخاطئين ؟

***

وسمعتك تناجيني – وانت تتكلم دون انقطاع –
باحب الاسماء على فمي وانداها
وافعلها في نفسي وفي صميمي
فانصتّ طويلا جداً ..
ثم انكرت موقفي منك ، فانكرت نفسي
مرة ، ومرة ، ومرة
ثم انكرتك على نفسي ... متحدية ، متأبية
ثم .. تنكرت لصفات ابي التي طالما قدستها
تلك الصفات التي سرعان ما اجتذبتني الى استطلاعك
ويا هول ما بدا لي منها
لقد بدت لي ارادته الغلابة ستاراً لاشياء
يكتنفها في قرارة نفسه
وسماحة خلقه انتقاصاً من قيم الآخرين
وشموخه الصارخ ، عجرفة وتكبراً
ولطفه الوافر ، مداهنة ومواربة
ووفاؤه البالغ ، هبة ومنة
ورحمته ورأفته ، غلاً يقيد بها بعض النفوس المريضة
وتطلعت اليك .. والى نفسي ، فاذا بي :
مرتاعة .. لهفى .. متمومرة .
وقلت منكرة مرة اخرى : ما شأني معك
ايها الغريب !
وما شأنك ؟

***

واحسست بدوار في رأسي غشيني منه ما غشيني
ودارت معه دنياي .. بما فيها
الى ان استقرت ناطقة في مقلتي الساهمتين
المتطلعتين اليك باستفهام وضراعة
ولكنك شددت علي يدي لتقول لي :
لماذا لا تجاوبين !
احب ان اسمع نغم صوتك الابح
وعندئذ فقط ، اغمضت عيني على حلم رائع
حلم لم تكن انت فيه .. ولا انا
انما كان زوجي الطيب النبيل ، كان في هذا
السؤال الذي كثيراً ما يوجهه الي
ليحثني على الكلام .. وعلى الابتسام
وكان من ورائه .. وجه طفل غرير
يطل ويختفي مداعباً
يحملني على الضحك كأبيه
واغفى الحلم على اهدابي المسدلة
ففقوت بدوري على كتفك ، دون وعي مني
ولا ارادة
ورحت في شبه سبات عميق
لم يكن لي يد في دفعه ، او مجانبته ..
كأنما هو كابوس من حديد
كان قد اثقله تلاطم افكاري المتشعبة
واحسست برأسي الواهي يهوي الى الوراء
وسرعان ما هوى ساعدك ليدرأ عني خطر
السقوط ، واللجام مشدود الى يدك
كدأبه منذ ركبت الجواد
وجوادك الاصيل ، الذي يشبهك برزانته يجد
بنا السير حثيثاً ، لا يلوي على شيء

صدر حديثاً

فتى غفار

ملحمة شعرية تصور
حياة ابي ذر الغفاري
اول اشتراكي في الاسلام

للشاعر السوري الاستاذ

سليمان العيسى

دار العلم للملايين

وشددتني اليك .، وانت تهمس في اذني
شوقك اللافح الملح الى .. قبلة
ولكن سرعان ما افقت من ذهولي للتو
لأرفع ساعدك عن كتفي .
كما ارفع شيئاً مقدساً
وآخذها بين يدي . وانا اتمتم متوسلة اليك –
مهيبة بك :

– انك لن تفعل هذا ابداً . لانك – كما
قد خيل الي دائماً – ارفع من هذه الصغائر

وقلت في نفسي،
ويك يا نفس ما اشد غباوتك
لقد تركت مثاليتي المسرفة تطبعه بطابع منها ..
حتى خلته ملكا ، وليس مجرد انسان ..
ورأيتك تأخذ وضعاً جديداً
ويأخذ وجهك طابعاً صارماً
هذا الوجه ذو القسمات الوضاء
لقد تغلبت الارادة القوية على الصغائر حقاً
ولكنها لم تتغلب لانها تعلو عليها وتنبو عنها
ولا لانها تكبر في قيمي الذاتية
بل لانها لم تجد في حقيقتي التجاوب الطبيعي لها
فانكفأت لتتوارى وزاء الاستار المخملية
وغدا الدوار الذي غشيني حمى لاهبة
ما ليثت ان تسربت الى يدي
فاذا بهما تلفحان يديك الباردتين .

***

وهنالك عند آخر منعطف للطريق
بالقرب من منزلنا
اذاكر انت ! ايها الغريب الراحل ؟
كيف كنت حزينة ، ساهمة حتى الجمود
وكيف رأرأت الدموع مراراً في مقلتيك
فسحتها باصابعي المحرورة
وودت لو امسح عن جبينك جهمته
بينما انت .. تتغلب على طفرة الانفعال
بصبر عجيب – واتهام صامت ..
اكانت تلك الدموع خالصة لي !
ولحبي الروحاني الذي فتشت عنه عبثاً في كيان
هذه الحياة ؟
وصدمت من اجله بافكاري ومبادئي !
ام هي دموع الخذلان حينما يصارع الرجل في
طبيعته العتية ؟
ام انها دموع الحرمان من الاخذ الحر ،
حينما يستطيع الرجل ان يأخذ ؟
لا ادري ... ويا ليتني دريت
اذن لاعفيت نفسي من سماعها ، في مثل هذه
الاغاني الحزينة
واذن لجملتها ضلاة عذبة ، تصاعد الى الله في
ارق المعاني واحلاها
في كل ساعة من ساعات الليل والنهار متهجدة
خاشعة
واذن لما جهدت بكل قواي الخيرة
كي احتفظ بك ، مجرد شبح وحسب ...

***

فيا ايها الشبح الغائم
الذى مر بي سريعاً سريعاً
كأنما هو السحابة الزهواء
حاسباً انه سيهدم بلحظة واحدة
ما بنيته بنفسي عمرى كله
هل كانت رحلتك معي ممتعة طريفة ؟
كما يأمل المحبون ان تكون ابداً !
كلا .. لم تكن لعمري كذلك .. بالنسبة اليك
ولو انها كانت
أجل ...
لماتت اغاني على شفتي
كما تموت الزهور المطرة
حينما تلفحها شمس الظهيرة القائظة
فالانغام البكر المجنحة
ايها الراحل ، الغاضب الأنوف
الاثير لدي حتى الموت
لاتصاعد الا من شفتين مقدستين
لا تصهرهما نار التجربة ، لانهما طاهرتان
ولا تغسلها دموع القلب ...
لانهما نقيتان ابيتان

جهان غزاوي عوني

١٠٦